المفكر العربي صادق جلال العظم:

ليس هناك سر للاستشراق بل دول صاعدة تتوسع وتهيمن .. وتعمل على إيجاد مبررات لنفسها!!

□.. بنزعته النقدية المكتملة يؤكد المفكر السوري/ صادق جلال العظم أنها الأقدر على تحليل أولويات «كتاب الاستشراق» لإدوارد سعيد، وذلك عندما كتب «الاستشراق والاستشراق معكوساً» الذي أثار في حينه ولايزال ردود فعل سلبية من بعض المثقفين العرب الذين رأوا في الكتاب اتهاماً صريحاً لإدوارد سعيد بالعمالة للغرب، وهذا ما نفاه صادق جلال العظم الذي قال: «ادوارد سعيد رفيق دربي ومعرفتنا متينة وعندما كنت أذهب الى نيويورك كنت أقيم في منزله وهو جار لي في بيروت».. لكنه اعترف بأنه لم يوفق في التعبير عما يدور في داخله لهذا فهمه البعض بأنه يتهم ادوارد سعيد بالعمالة، علماً أنه يعتبر النقد ظاهرة صحية حتى لو كان ادوارد صديقه.. فإلى نص الحوار:

حاوره/ عبدالكريم العفنان

● اذا كان ماركس قلب هيجل وجعله يمشي على قدميه بدلاً من رأسه.. فهل كان كتاب «الاستشراق والاستشراق معكوساً» الذي كان رداً صريحاً على إدوارد سعيد يستهدف الغاية نفسها بأن يجعل الاستشراق يسير على قدميه بدلاً من رأسه؟!

– الجواب على العموم.. نعم، ومن الأشياء التي أقلقتني عن صدور كتاب الاستشراق هو ما نعتبره بالتعابير الماركسية جزءاً من البنية الفوقية لحياة مجتمع ما تحولت الى العامل المقرر والحاسم والمحرك على الأقل في معظم الكتاب بدلاً من العوامل التي ننسبها للبنية التحتية في حياة المجتمع، ولذلك قال أحد الأصدقاء.. يبدو من كتاب إدوارد وكأن الاستعمار هو أعلى مراحل الاستشراق بمعنى أنه بدلاً من أن يكون الاستشراق هو الخطاب الملائم للعملية الاستعمارية «الاستعمار عملية مادية» الطريقة التي قدم فيها ادوارد موضوع الاستشراق «واقف على رأسه» وكأن الخطاب الاستشراقي هو الذي صنع التوسع الاستعماري الأوروبي وهناك جزء كبير من الكتاب في هذا الاتجاه مع أن هناك أجزاء ومقاطع من كتاب الاستشراق فيها تخفيف لوجهة النظر هذه أو تستشهد ببعض المقاطع التي تبين أن الأمور ليست هكذا تماماً.

وما أقلقني ثانياً في الكتاب ثقل نقاشه بأن يجعل الخطاب الاستشراقي هو المحرك الأول للتوسع الأوروبي مع بداية العصر الحديث «عصر النهضة» بدلاً من أن يكون توسعة هو المحرك الأول والخطاب الاستشراقي الذي هو الايديولوجية والرؤية والمشروع الفكري وهذه الفكرة متأتية عند ادوارد أنه حين كتب الكتاب كان متأثراً كثيراً بالكاتب الفرنسي/ ميشيل فوكو وكان تحت تاثير نظرية الخطاب الفرنسية وهي تعطي الخطاب كتشكيلة معرفية دوراً محركاً أولاً وحاسماً في تحريك الأحداث وهو تاثر بهذا الشيء مما انعكس في كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد.

وما أقلقني أيضاً كعربي لديّ حساسية نقدية عالية تجاه الانغماس الزائد للعربي المعاصر في عالم الخطابة والخطابات والكلمات والعبارات لدرجة «العقلية السحرية» كأن الكلام والخطاب يغير الواقع لدرجة أن مفكراً مثل عبدالله القصيمي يقول عن العرب: «ظاهرة صوتية».

ووجدت أيضاً شيئاً خطيراً في كتاب الاستشراق عندما يشدد ادوارد على أهمية الخطابة لهذه الدرجة هذا سيتناغم بشكل ممتاز وكأنه اعادة تأكيد لنزوع العرب نحو الخطابة ونحو الشفوية بدل الاتجاه نحو ما هو فعال أكثر، أنا لا أريد أن أضع الاستشراق على قدميه ولكني أردت أن أضع نقداً لتقديم الاستشراق على أنه خطاب تراكمي طويل المدى وهو المحرك الأول في علاقة أوروبا الحديثة بالشرق..

وأسأل: هل المصالح المادية الحيوية هي المحرك وتنتج خطابها الاستشراقي؟ أم أن الاستشراق هو المحرك لأوروبا ويجعلها تسعى باتجاه المصالح الحيوية؟ وإعادة المسألة الى نصابها الطبيعي هو أن نعتبر المصالح المادية تتطلب دراسات وبحوثاً لفهم الثقافات الأخرى التي قام بها الاستشراق.

● وماذا عن التأييد والتبني العربي للمثقفين العرب لفكر ادوارد الاستشراقي؟

– هذا التأييد جاء عن عصبوية أكثر مما جاء عن تمحيص وتدقيق في الكتاب.

أنا ومهدي عامر من نقد الكتاب والباقي هللوا وكبروا وتبنوا الكتاب لأسباب من وجهة نظري خاطئة لأنه مجرد نقد للاستشراق وللغرب «فش خلق بالنسبة للمثقفين العرب» الذين تعاملوا مع الكتاب عاطفياً والالتفاف حول الكتاب نوع من العصبوية والعشائرية على مبدأ المثل القائل «حك لهم على جرب» وهذا ما دعاني للشذوذ عن شبه الاجماع العربي على الكتاب لأسباب ليس بالضرورة أن يكون لها علاقة بالنقد أو الفهم.

● هل عجز المثقفين العرب عن إدراك مكنونات الاستشراق؟

– لا أعتبر أن هناك سراً للاستشراق، هناك دول عظمى صاعدة تتوسع وتستعمر وتهيمن من الطبيعي أن تنتج مبررات وموسوغات لنفسها وتنتج أحياناً علماً حقيقياً عن المناطق التي تفتحها وتديرها وتوجه لها مستقبلها، والغرب أصحاب ثورة علمية من الطبيعي أن ينقلوا بعض مناهج الثورة العلمية في أوروبا لدراسة الثقافات واللغات في البلدان التي فتحوها ويسيطرون عليها، لكن هذا لا يكشف عن حقيقة القصة بكاملها، هناك علماء ومستشرقون لديهم اندفاع علمي حقيقي لفهم الثقافات الأخرى.

أنا لا أريد أن أدين من درس الثقافة العربية أو الثقافات الأخرى ولا أعتبره يقوم بذلك لأغراض استعمارية وادوارد لم يفعل ذلك، هو استثنى عدداً من المستشرقين واعتبرهم علماء حقيقيين مثل: ماسينيون مستشرق من النوع الذي ينتقده ادوارد.

- هناك ميلٌ لدى بعض المثقفين العرب للاستهتار بكل ما أنجزه الاستشراق على أساس أنه من موقعٍ معادٍ

وادوارد لا ينكر الانجازات التقنية على الاستشراق كقراءة لغات ميتة لا أحد يستطيع قراءتها منذ مئات السنين وصولاً الى ادخال المناهج العلمية الحديثة في دراسة المخطوطات والنصوص وتأويلها وتفسيرها، وعلى العكس تماماً هناك ميل لدى بعض المثقفين العرب للاستهتار بكل ما أنجزه الاستشراق على أساس أنه من موقع معاد.

● لكن.. من يقرأ «الاستشراق والاستشراق معكوساً» يصل الى قناعة باتهامك لادوارد سعيد بالعمالة وإن لم تكن مقصودة؟

– لا.. هذا غير صحيح على الاطلاق، لكن كتبت بضع جمل لم أوفق في التعبير عما كان يدور في ذهني، وكل كاتب يظن أنه فكّر وعبّر بالشكل الصحيح لكنه يشعر لاحقاً بأن ما كتبه وصل بصورة مغايرة كما أراد، وهذا ما حدث معي عندما كتب «النقد الذاتي بعد الهزيمة» الكثر قال انني أخدم اسرائيل وهذا نوع من الموقف الصعب والمحنة «اذا كتبت تشعر وكأنك تخدم العدو واذا لم تكتب تشعر وكأنك تسيء لنفسك وتنتسر على العيوب وهذا أيضاً خدمة للعدو».

وادوارد في فترة شهر العسل مع الرئيس/ عرفات راهن على الولايات المتحدة لحل مشكلة فلسطين وكنت متحفظاً وحينها كتبت مقالاً نشرته بالانكليزية عنوانه «الصهيونية الفلسطينية» لم أتجرأ على نشره بالعربية، وهذا المقال أوضح كيف استطاعت الصهيونية أن تأخذ فلسطين حين وضعت نفسها في خدمة المصالح الاستعمارية والامبريالية الكبيرة «بريطانيا والولايات المتحدة» أخذوا ما كانوا يريدون وعندما قلد الفلسطينيون الصهيونية العالمية وضعوا أنفسهم في خدمة الولايات المتحدة ليعتمد عليهم بدلاً من اسرائيل ولم يتحقق لهم ما كانوا يطمحون له.

أعترف أنني لم أوفق إلى قول ما في داخلي ففهمت وكأني أتهم إدوارد بالعمالة، وقد أوضحت ذلك في نقاشاتي مع أدونيس حول الثورة الايرانية، بالعكس تماماً أنزه إدوارد كلياً ولا أشك في إخلاصه لقضيته، وبعد نشر ادوارد للاستشراق طلب اليه مجلس العلاقات الخارجية وهو هيئة مستقلة غير حكومية تصدر مجلة «فورن ايفرز» أن يشارك في المجلة وسألني عن رأيي في دخوله الى المجلة فأجبته بـ «لا» لأني أعرف أن ادوارد أكثر ميلاً للعمل من الداخل بدلاً من الوقوف النقدي من الخارج.

● برأيك هل الصور التي قدمها ادوارد سعيد عن المثقف ووظيفته تقدم المثقف باعتباره كائناً يسير على رأسه أو قدميه؟

– برأيي هناك عاملان يجتذبان ادوارد بالنسبة للمثقف.

العامل الأول: يمثله ادوارد في حياته العملية وهو الالتزام بقضايا معينة والكفاح من أجلها وهنا يمشي المثقف على رجليه. وهناك صورة أخرى للمثقف العائم فوق هذه القضايا وهذا ما يسمى بالبرج العاجي الذي ينظر من الأعلى الى هذه القضايا. ادوارد قبل ١٩٦٧م كان هذا النوع وأنا لا أنكر عليه هذه المسألة بالنسبة للعالم والمثقف وضع مريح أن تشعر نفسك أنك تتعاطى مع قضايا مهمة وأن هذه الأمور عابرة والى حد ما أنا أيضاً كنت ميالاً لمثل هذه الصورة، ولولا هزيمة ١٩٦٧م لاستمررت في عالم المسائل الفكرية والفلسفية والابستمولوجيا وفلسفة العلوم والخيال.

وأحياناً ادوارد يميل الى صورة المثقف الذي يمشي على رجليه «المثقف الملتزم» وأحياناً يميل الى الفكرة التقليدية المريحة عن المثقف وجزء من يسارية أدوارد يؤكد هذا الجانب وأحياناً تضعف لمصلحة المثقف والعالم وأستاذ الجامعة بالمعنى الكلاسيكي وأحياناً يعود بين هذين الجانبين وهذا ليس بالضرورة نقيصة لأن الحياة بحاجة لكل هذه التعارضات.

لا أريد القول أن ادوارد سعيد بعد ١٩٦٧م مفهومه للمثقف ابتذل فقط لدرجة الالتزام فقط بالقضايا التي يؤمن بها. هناك احترام للتجريد.

● ما العنصر الجوهري في تجربة ادوارد سعيد خارج المكان؟ هل هي تجربة فردية أم تجربة جماعية؟ هل كان مهموماً بفرديته أم بتجربة الشعب الفلسطيني بصفة عامة..؟! مع الاشارة بأنك فصلت بين أدوارد الأمريكي وسعيد العربي؟!

– هناك جانبان في ادوارد.. ادوارد سعيد.. عندما يكتب ادوارد سعيد عن الاستشراق أو عن تغطية الاسلام أو القضية الفلسطينية هنا سعيد أكثر من ادوارد، لكن عندما يكتب «خارج المكان» هو أقرب الى ادوارد الأمريكي من سعيد العربي لأن هذا النوع من السيرة الذاتية التي تتعمق بعلاقة الكاتب بأهله هي نموذجية في الغرب. في هذا النوع من البوح الجريء هو ادوارد سعيد الأوروبي – الأمريكي على غرار اعترافات روسو، ولا مانع من أن يسير على الخطين فهو أمريكي وعربي – فلسطيني بوقت واحد ولا يريد أن يختار خياراً نهائياً وأن يتلبس واحد لهوية الآخر. لا يريد أن يتخلى عن أمريكيته وغربيته ولا أحد يشك أن الهم الفلسطيني والعربي في العالم الثالث عند ادوارد سعيد كان من أولوياته.

في خارج المكان حمل الهم الفردي ولا أخطئ ادوارد سعيد على السير في هذين الخطين طالما أن عنده الطاقة والمقدرة والعقل الفذ.

وهذا الكتاب بعد ترجمته أدخل نوعاً جديداً من السيرة الذاتية في الأدبيات العربية، البعض قرأ اعترافات روسو، لكن يبقى هذا بنفس غربي لكن عندما يقوم ادوارد العربي – الفلسطيني بهذا النوع الجديد من الكتابة والبوح يعتبر مكسباً كبيراً للقارئ العربي، أما أنا لست مغرماً بهذا النوع من البوح لأني أعتبره تجربة فردية.

● اشتهر ادوارد سعيد بكشفه لأساليب التغطية المنحازة لأجهزة الاعلام الغربية وخاصة الأمريكية ضد الاسلام ولما يتصل بقضايا الشعوب الاسلامية «كما هو معروف بكتابه تغطية الاسلام».. ما رأيك في هذه التجربة بعد أحداث سبتمبر؟!

– ادوارد في هذه المسألة يختلف عن الكثير في الشرق، لأننا في العالم العربي لا نفاجأ ولا نشعر بالصدمة مهما عمل الاعلام الغربي، ادوارد في جانبه الغربي والأمريكي يصعب عليه أن يكون اعلام بلده سيئاً الى هذه الدرجة. أنا في الشرق يصعب عليّ أن يكون الاعلام العربي سيئاً الى هذه الدرجة، ادوارد يريد أن يتحقق من ادعاءات الاعلام الغربي بالنسبة للعرب وفلسطين، نقده للاعلام الغربي نقد بناء وهو لا يريد هدم الاعلام الغربي انما يريده أن يكون بمستوى ادعاءاته وطموحاته، من السهل الهجوم على الاعلام الغربي ولكن من في هذا العالم قادر على أن يستغني عن الاعلام الغربي؟ لا أحد من القادة أو الشعوب يستطيع الاستغناء عن هذا الاعلام لأن هناك شيئاً مهماً فيه رغم تحفظنا الشديد عليه.

ادوارد أدرك هذه المسألة، ولذلك نقده للاعلام الغربي هو نقد شخص مفجوع بإعلام بلده.

شروطٌ أساسية في إعادة تأهيل المثقفين

□ إن نجاح المثقفين العرب في استعادة دورهم في الحياة العامة والمشاركة في بناء السياسة الوطنية يتوقف على تحقيق شروط ثلاثة أساسية :

○ الشرط الأول : إعادة بناء سلطة المثقفين الثقافية، وهو الميدان الرئيسي لتدخلهم الواسع والمثمر والجمعي في الأمور العامة، أي في تنظيم شؤون الاجتماع السياسي، وقوام هذه السلطة ليس مشاركة المثقفين في العمل السياسي المباشر، ولكن مساهمتهم في تحديد القيم الاجتماعية، وتحولهم بالتالي إلى مرجع من ضمن المراجع التي يستند إليها الرأي العام ويعتمدها في بلورة رؤيته للمسائل العامة، ويحتاج بناء مثل هذه السلطة المرجعية أولاً إلى تطوير مساهمة المثقفين الأصيلة القائمة على إنتاج الثقافة الحياة التي يقوم عليها إنتاج المجتمع نفسه، كوحدة وكمدينة وكمنظومة منتجة وفاعلة في الحضارة، ويحتاج بناؤها ثانياً إلى تدعيم موقع المثقفين ووزنهم في النقاش الواسع المحيط بالشؤون العامة، ولا يمكن لمثل هذا أن يتحقق إلاّ إذا نجح المثقفون في تكوين رأي سائد أو تيار قوي داخل صفوفهم في ما يتعلق بالمسائل الرئيسية، ويرتبط كل ذلك بنجاح المثقفين في العثور على ما يوحدهم ويتجاوز تبعثرهم وشقاقهم من جهة، وفوزهم بالحد الأدنى من استقلالهم إزاء السلطات والقوى الأخرى التي ترهنهم لإرادتها أو تمنعهم من تكوين أي شكل من أشكال التواصل والتفاهم والتكتل وفي مقدمتها السلطة السياسية العامة أو سلطة الدولة.

○ الشرط الثاني : المشاركة السياسية على قدم المساواة مع الفئات المبنية والاجتماعية الأخرى في العمل السياسي المباشر وبعكس النزعة التي تسود اليوم في أوساط المثقفين الذين خيبت آمالهم طبيعة السياسة الراهنة، ليس من مصلحة المجتمعات العربية ولا مصلحة المثقفين أنفسهم اختيار موقف التقوقع والاحتراف المهني وهجر النشاط السياسي، وليس من الممكن أن ينظروا إلى أنفسهم كما لو كانوا أقل مسؤولية من فئات المجتمع الأخرى، من فلاحين وعمال ورأسماليين، في المشاركة في العمل السياسي وتقرير المصير الوطني، فالعمل على بناء السلطة الثقافية وتدعيمها لا ينبغي أن يطمس الأهمية الكبرى من وجهة النظر الوطنية لمشاركة المثقفين المباشرة في الصراع من أجل التغيير وفي ممارسة السلطة نفسها.

إن من الصعب على المثقفين بناء سلطتهم الثقافية ذاتها ما لم يساهموا في بناء قدرة المجتمعات العربية على الخروج من أزمة أنظمة البيروقراطية الراهنة وفرض تحولات ديمقراطية فعلية عليها، مهما كانت جزئية وتدريجية، ومن دون الدخول عملياً في منطق التحويل الديمقراطي، بما يعنيه من اعتراف مبدئي بقيمة الرأي العام في تقرير السياسة وموقع الشعب والمواطن في إضفاء الشرعية على الخيارات السياسية والاستراتيجية، لن يكون هناك أي أمل بظهور المثقف من جديد على الساحة العمومية ولا بتطور وعي سياسي جديد لدى المثقفين، ففيما وراء تنظيم العلاقة بين المثقف والسياسة ينبغي الاعتراف بأن المثقف لا يزال يشكل في المرحلة الراهنة، كما تشكل الثقافة التي يحملها ويرمز إليها، أحد العناصر الرئيسية في الحركية التي تسير وتدفع إلى تطور المجتمعات العربية، بل ربما كان المصدر الرئيسي أو المحرك الأقوى لهذه المجتمعات، وسوف يكون من المضر جداً، وهو مضر الآن بالفعل، التضحية بهذه القوة الخلاقة وتعقيمها سياسياً لصالح النخبات الأخرى التي يسيطر عليها مفهوم ضيق للسياسة الوطنية وللاستراتيجيات التاريخية في الوقت نفسه.

إن إخراج المجتمعات العربية من الطريق المسدود الذي وصلت إليه يتوقف بالدرجة الأولى على إصلاح السياسة فيها، ولفساد السياسة العربية مصادر عديدة، من أهمها تطور الممارسة بمعزل عن الفكر، وهو الأمر الذي أنتج سياسة تجريبية واختبارية قصيرة النظر، ولّد فكراً تأملياً بعيداً عن كل حس واقعي وعملي، فهذه القطيعة العميقة بين الفكر والممارسة هي التي تفسر نزوع السياسة العربية إلى المراهنة المطلقة على القوة والعنف، وتطور المطالب الاجتماعية لدى الرأي العام نحو مطالب أيديولوجية وجذرية مضمونها اليأس من التغيير والشك في السياسة، أكثر منه التطلع إلى الإصلاح.

وبما أن القسم الأكبر من المثقفين لم يدرك أولوية مهمة تفكيك الأنظمة الشمولية، تحولت معركة الحريات والتحولات الديمقراطية التي بدأت منذ بداية الثمانينيات إلى معركة استعادة هيبة الدولة وإقرار الأمن والقضاء على الإرهاب، أي تعزيز النظم القائمة، وكانت النتيجة إحباط أعمق للمثقفين والإفراط في تشتتهم وتزايد تشكيكهم بأنفسهم وموقعهم ودورهم ومركزهم الاجتماعي، وهكذا أمكن النظم البيروقراطية القائمة أن تجهض الحركة الديمقراطية القوية التي انطلقت في الوقت نفسه تقريباً في أقطار متعددة من المنطقة العربية، بل تجاوزت ذلك إلى تجنيد المثقفين أنفسهم للدفاع عن هذه الأنظمة في معركة الحفاظ على الوضع القائم ضد خصومها من الإسلاميين.

○ الشرط الثالث : تفعيل دور المثقفين والتغلب على هذا الإحباط وإعادة إدخالهم في معادلة سوق السلطة العامة، فهو يكمن في إعادة النظر في رؤية المثقف لنفسه ودوره الفكري، فلم يعد هناك بالتأكيد حاجة إلى مثقف ينظر نفسه كقيّم على الحقيقة وممثل للعقل والحق، ولا إلى جرثومة التقدم وحامل الوعي التقدمي والثوري الذي يتوقف عليه وحده نقل المجتمعات من الظلام إلى النور، ولا إلى المثقف العضوي الذي يتماهى مع الطبقة ويصبح عقلها المفكر وقلبها الضارب، لكن المثقف لن يكون فاعلاً اجتماعياً – أيضاً – ولا صاحب سلطة معنوية إذا قبل أن يكون معقباً على أحداث السياسة، ملتزماً الحقيقة، مبتعداً بنفسه عن مشاكل السياسية، يقيّم عمل الحاكم ويقدم له النصح.

○ الشرط الرابع لتفعيل دور المثقفين يكمن في المراجعة الجذرية لمفهوم العمل السياسي والعام، ويعني ذلك في هذا السياق تغيير العلاقة مع الجمهور والكف عن النظر إلى الرأي العام على أنه محيط من الجهلة والمستلبين الذين يجدر برجل الثقافة إنقاذهم وكسبهم والنظر إليه بالعكس من ذلك من حيث هو التعبير المتعدد والمتغير عن مجموعات المصالح والرؤى والأفكار والعقائد المشروعة التي تحرك المجتمع وتوجه مسيرته، وفي هذه الحالة لن تكون وظيفة المثقف الهداية ولا بث الحقيقة في عالم غريب عنها، ولكن إحياء المناقشة والمناظرة والحوار مع القوى الاجتماعية والفكرية والمشاركة في تطوير مختلف تيارات الرأي والنظر الموجودة.

ويستدعي هذا كذلك تجاوز عقلية الماضي والتخلي عن النموذج التقليدي المعروف للعمل والانفتاح على الواقع الجديد، فلم تعد هناك جدوى كبيرة من سياسة رأسمالها الأول التأكيد على المبادئ وتزداد الشعارات والتعبير عن التهاب المشاعر وقوة اليقين، فالسياسة في مجتمع العرب اليوم معادلة جوهرها تحقيق أهداف عملية من خلال علاقة قوة فعلية، ولن يكون للمثقف مكان في السياسة ما لم يساهم في تكوين القوى والتأثير المباشر وغير المباشر على تغيير معادلة القوة العملية هذه.

لا يعني هذا بالتأكيد أن جميع المثقفين سينخرطون في مثل هذا العمل السياسي، ولا أن عليهم أن يتكتلوا ويصبحوا قطباً مستقلاً بذاته.

إن مشاركة المثقفين في القيادة السياسية والفكرية للفئات والطبقات الاجتماعية تفترض تعدديتهم واندماجهم في أكثر من حزب وطبقة وتيار رأي، فليس المهم صوغ رأي واحد جامع ومانع وممثل للحقيقة، ولكن تطوير جميع الآراء والارتفاع بمستوى المناظرة الوطنية على جميع المستويات.

لم يبتعد صوتك المشتهى..

إلى فدوى طوقان

عبدالناصر صالح*

● وحدكِ الآن،
لا
لست وحدك،
تغتسلين بماء العيون الأسيفة
إذْ جف ضرع الينابيع
وانشطر القلب نصفين
نصفٌ تلقفه الموت
حين استجار من الحلم بالدمع،
فاستنزفته المتاهات
والرجفات المدببة الرأس،
والآخر ازدان بالشر
يقطر،
مشتملاً باليفاعة
لا.. لست وحدك،
تفتتحين البياض على أفق
يتراوح بين بكاءين
خلف الجدار خطى الراحلين،
فمن سيكفكف حزن السماء ودمع القصائد
حين تغيب المليكة؟
من سيجهز للموت رقصته؟
شحت الغيمة المطرية
والموت يجلس في حالة القرفصاء
فمن يرتدي الآن ثوب الفضيلة
في غابة الشعراء؟
ومن سيهدهد وجنة جرزيم، ينفض غربته
حين تنأى الأغاني
ويبقى على عريه اللحن متشحاً بالذهول؟
ومن سيحرر ناصية الأبجدية
من صدأ الكلمات؟
الفصول تخالف ميقاتها
والطريق الذي عمدته الأناشيد بالخطو
ينسى ملامحه..
...
...
● وحدك الآن
لا..
لست وحدك..
حولك أسماؤهم
وامتداد روائحهم في التراب،
أصداؤهم
فهل نسي الوجه دُرّاقه؟
سفرٌ مرحلي، إذاً،
ومراسم للدفن، أضرحةٌ تستلذ بأسرارها
في عباءات جرزيم،
يفجؤها عبءُ نفس السؤال
– الى أين؟
يبهرها عبء نفس الجواب
– الصدى ممعن بالبياض،
فهلا نفضت عن الثوب خيط الأفول
لنشرب حتى الثمالة من لذة القاع،
نهدي العصافير ألوانها القزحية
نغفو على حنطة الأرض سبع شموسٍ،
نُسيّج رائحة الراحلين
ونُصغي لأنفاسنا في الرماد..
«أي رذاذٍ يُغذي أصابعنا
ثم يُثمرُ معجزة بعد سبع شموسٍ،
وموت؟»
نصلّي لنخلتنا...
كي تدل علينا الرياح
ونبدأ من خضرة السعف:
لاموت يُرخي حماقته
أو جدار يضج بأقفاله،
أو أعاصير تقتلع الصوت
ما من أيائل مشدودة الجيد تستر
أوجاعها..
القصيدة أوحت بمعجزةٍ
لا قرابين فيها..
ولا زلزلة
فمن يفتح الآن باب الصباح على الأسئلة؟
● وحدك الآن
لا
صرت ضرع البساتين
أشجارها،
وروائحها الملكية
نهر عصافيرها المترقرق،
صرت غناء الحواكير
يقطر،
حول البيوت العتيقة
لم يبتعد صوتك المشتهى عند مفترق العمر،
لم أبتعد عند حزني
ولم أتحسس حمامة عينيك، بعد،
لكنني منذ ألقت عليّ السكينة بردتها
في دوار الكتابة،
كنت أزخرف غيم البدايات وحدي..
فيرتج ماء
يمرر فوق التراب عيون تراتيله
كنت وحدي
أعاقر ليل الأساطير تأتي على حين أغنيةٍ
أستضيف حقولاً
وأرضعُ من صدرك الحر شهد الحليب المقدس
ياأم..
صدرك لي وطني المعنوي..
فمن سيفجر نهر العصافير
أو سيزيح الستارة عن وطنٍ في وداعة أنثى؟
....
....
● وحدك الآن
يزهو بعينيك ماتشتهيه الفراشة
من ألفة الضوء
أو شهوة المستحيل
يترقرق كالجدول الفذ صوتك
ياامرأة صوتها دينها..
...
...
يجلس الموت في حالة القرفصاء
بينما..
يقف الشعر في حالة الكبرياء.

٢٠٠٤/٢/١٨م
طولكرم– فلسطين*